الباب الأول

الدعوة المحمدية وانتشار الدين الإسلامي

الحاجة إلى الرسل :

لقد جرت الحكمة الآلهية ـ فى تنظيم هذا الوجود ـ على أن تبين للناس الطريق المستقيم ، الذى يؤدى إلى النجاة والفوز بسعادة الدنيا والآخرة . لذلك اصطفى الله من بين عباده رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . فمن تتبع حال الرسل صلوات الله عليهم ، وجدأنهم أتوا لكل أمة بما ينتزع منها الداء العضال الذى حل بها : فمن تبصر قليلا فى الأمة العيسوية ، وجد أن عيسى (عليه السلام) قد جاءها وهى فى أشد الحاجة إليه ، إذ كانت قد أغرقت فى حب الدنيا ، وبالغت فى اللذات والشهوات .

فجاء ينهى عن تلك الخصال المذمومة ، ويدعو إلى الزهد والتقوى والورع .

وبعد انقضاء عصره خيم على العالم ظلام الجاهلية ، ودبت الفرضى ، واستحكمت الخلافات الدينية ، وعبد الشجر والحجر واللات[1] والعزى[2] ومناة[3]

---

(١) اللات صخرة مربعة بالطائف . كان سدنتها من ثقيف ، وكانت جميع العرب تعظمها ؛ فتسمى (زيد اللات) و (تيم اللات) . ولما اسلمت ثقيف ، بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المغيرة بن شعبة ، فهدمها وحرقها بالنار . أنظر الأصنام لابن الكلبي ١٦ — ١٧

(٢) العزى أحدث من اللات ومناة . كانت بواد من نخلة الشامية ، يقال له حراض بازاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة . وكانت أعظم الأصنام عند العرب وقريش : يزورونها ويتقربون عندها بالذبح ، ويسمون بها (عبد العزى) . قيل كانت شيطانة تأتى ثلاث سمرات ببطن نخلة ، فعضدها ـ واحدة بعد الأخرى ـ خالد بن الوليد بأمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد فتح مكة انظر الأصنام لابن الكلبي ١٧ — ٢٧

(٣) مناة أقدم الأصنام جميعا . والعرب كانت تسمى (عبد مناة) و (زيد مناة) وكانت منصوبة بقديد (على ساحل البحر بين المدينة ومكه) . وقد هدم مناة على بن أبى طالب بأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) سنة ثمان من الهجرة (عام الفتح) ، وأخذ سيفين كانا لها أحدهما ذو الفقار . أنظر الأصنام لابن الكلبي ١٣ — ١٥

الثالثة الأخرى ، واشتكى الوجود إلى ربه طالباً منه أن يخرج العالم من الظلمات إلى النور ، فأجيبت دعوته ، وبعث الله فى الناس محمداً (صلى الله عليه وسلم) يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة .

دعوة النبى (صلى الله عليه وسلم) سراً :

إختار الله من أشرف الأنساب محمداً (صلى الله عليه وسلم) : فكان مولده - بمكة عام الفيل سنة ٥٧١ ميلادية - من أبوين كريمين هما عبد الله بن عبد المطلب وآمنة بنت وهب . ونبىء على رأس الأربعين . ثم أخذ يدعو الناس سراً ، فآمن به أبو بكر وعلى وخديجة ومولاه زيد بن حارثة رضى الله عنهم . واستمر كذلك حتى آمن به نحو الأربعين .

الدعوة جهراً :

بعد مضى ثلاث سنين من بعثته ، أمر صلى الله عليه وسلم أن يجهر بالدعوة « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » فلما جهر بها هال قريشاً ذلك الدين الذى لا يقيم للوثنية وزنا ، ولا يخشى فى الله لومة لائم . فأخذتهم حمية الجاهلية ، وثارت ثائرتهم ، وطلبوا من عمه أبى طالب أن يكفه عن تسفيه آلهتهم ، ويرجعه إلى دين آبائه . فعرض عليه طلبهم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم قوله المشهور الذى يدل على الاخلاص فى القيام بالدعوة ، والتفانى فى سبيل الله : « ياعم ! والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه ، ماتركته » حينئذ أيقن أبو طالب أن ابن أخيه لا بد له من النجاح ، فقال له : إفعل ما أمرت به . والله لا أسلمك[1] أبداً .

انتشرت الدعوة فى أنحاء الجزيرة ، وكثر إسلام العرب ، فازدادت عداوة المشركين للنبى ، واتحدوا على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطلب : لا يزوجونهم ،

---

(١) أى لا أخذلك . فى المصباح « أسلمته بمعنى خذلته » .

ولا يتزوجون منهم ، ولا يبيعونهم شيئا ، ولا يبتاعون منهم شيئا . فرأى النبي صلى الله عليه وسلم شدة الوطأة على أصحابه وخشى على دعوته أن يقف فى طريقها ما ينال أتباعه من العوز ، وشدة الحاجة . فأنفذ بصيرته إلى مخلص من ذلك المأزق فاهتدى إلى مكان يطمئن فيه أنصاره ، فكانت الحبشة أخصب مكان لهم .

الهجرة إلى الحبشة :

اشتد الأذى على المسلمين . فصارت كل قبيلة تعذب من دان منها بالاسلام بكل ما استطاعت من ضروب الأذى ، وصنوف العذاب ، فأرشدهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الهجرة إلى الحبشة ، وقال لهم : « اخرجوا إلى الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه » ففروا إلى الله بدينهم وهذه كانت أول هجرة فى الإسلام . وكان المهاجرون عشرة رجال وأربع نسوة . ثم تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون ، حتى كانت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلا ومعهم من نسائهم سبع عشرة امرأة سوى من خرج معهم من أولادهم الصغار . وكانوا من جميع بطون قريش . فلما وصلوا إلى الحبشة ، أكرم النجاشى مثواهم ، وأظهروا هناك دينهم ، لا يخافون شرا . ولما بلغ ذلك قريشا ، حنقوا عليهم ، وأجمعوا أمرهم على إرجاعهم ، فأرسلوا رجلين هما : عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص إلى ملك الحبشة ، وزودوهما بما يستطرف من الهدايا . فلما وصلا إلى الملك قالا له : « إنه قد صبأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء نطلب منك ردهم إلينا » وحدثت بينهما وبين النجاشى مناقشة طويلة (موضعها كتب السيرة) ، حتى قال النجاشى لهما « انطلقا . فلا والله لا أسلمهم اليكما » .

موت عمه أبي طالب وزوجه خديجة :

نشط دخول الناس فى الإسلام ، وازداد عددهم يوماً بعد يوم ، ولكن عكر هذا الجو الصافى وقوع خطبين جللين فى أيام متقاربة : فقد حلت السنة العاشرة

---

(١) صبأ صبوا من باب قعد . وصبوة أيضا مثل شهوة ، مال . المصباح .

للبعثة ، وفى شوال منها توفى عمه أبوطالب وزوجه خديجة رضى الله عنهما ؛ وعند ذلك نالت قريش من الرسول، وآذته بما لم تكن تطمع فيه فى حياة أبى طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه الشريف ترابا . فظهر للرسول شدة الاحتياج إلى رجل يسد ذلك الفراغ ، ويدخل الرعب فى قلوب المشركين ، فذهب إلى الطائف، وبها بطون ثقيف ، فعمد إلى رؤسائهم ، وكلمهم فى شأن الرسالة وطلب منهم النصرة ، فكانت قلوبهم كالحجارة لا تلين ، وطبع الله عليها ، فلم يجد الحق منفذا اليها « ومن يضلل الله فما له من هاد » . فلما يئس منهم رجع إلى مكة ، بعد أن طلب من المطعم بن عدى أن ينزله فى جواره ، فأجابه المطعم ، وفداه بنفسه وأولاده . ومكث بمكة يدعو الناس فى مواسم الحج إلى توحيد الله . فاستجاب له نفر من أهل المدينة ، فأسلموا ، ورجعوا إلى قومهم ، فأسلم كثير على أيديهم . ثم رجع منهم فى الموسم الثانى اثنا عشر رجلا ، بايعوه على الاسلام ، وبعث معهم النبي صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير ، ليعلمهم القرآن ، وشعائر الإسلام . فانتشر بينهم الإسلام ، حتى لم يبق دار فى المدينة ليس بها مسلم ، إلا قليل . ثم جاء فى الموسم الثالث ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ، بايعوه على الإيمان ، والتفانى فى سبيل الدعوة . وبذلك توطد الاسلام فى المدينة ، وتهيأت للمسلمين الهجرة إليها . وبعد أن وصلت الوفود التى بايعها النبي صلى الله عليه وسلم فى موسم الحج إلى المدينة ، ونشروا الاسلام ـ صارت المدينة ، مكانا خصبا صالحا لغرس المبادىء الاســـلامية ؛ فأخذ الغل والحسد يعملان عملهما فى قلوب المشركين فأجمعوا أمرهم على قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، فعلم بذلك . ثم خرج مع أبى بكر مهاجرا الى المدينة سرا . ففرح به اهلها . واتخذ المدينة دار اقامة ، وشيد بها مسجده العظيم (أحد الحرمين الشريفين) ثم لحق به أصحابه من أهل مكة ، فسماهم المهاجرين ولقب أهل المدينة بالأنصار . وصار يدعو الناس إلى توحيد الله تعالى . ثم شرع له القتال ، لكبح جماح من يريد التعدى على المسلمين ، فكانت الغزوات التى

أهمها : غزوة بدر[١] وأحد[٢] ، والخندق[٣] وخيبر[٤] وحدثت مهادنة بين قريش وبين النبى صلى الله عليه وسلم سنة ست من الهجرة ، حينما خرج إلى مكة معتمراً فمنعته قريش ، وحبست عثمان بن عفان (رسوله) فبايع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على الموت ، وأراد فتح مكة ، فهادنته قريش وحلفاؤها ، وأبرم معهم معاهدة صلح ، ورجع إلى المدينة .

ولم يمض على معاهدة الصلح أكثر من عامين ، حتى نقضها بنو بكر (حلفاؤهم) بتعديهم على خزاعة (حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم) . فجهز سنة ثمان من الهجرة جيشاً ، زحف به إلى مكة فدخلها ، ولم يبد أهلها إلا مقاومة قليلة ، ذابت أمام هذا الجيش ، كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس . وتوجه إلى الحرم ، وأنزل الأصنام عن الكعبة وكسرها . ثم أسلم جميع أهل مكة .

وفى آخر الغزوات سنة تسع من الهجرة ـ خفقت راية الاسلام على أكثر بلاد العرب ، وأمن أهلها على أنفسهم . ثم خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى بلاد الروم ، ومعه ثلاثون ألفاً ، وضرب الجزية على أهل : أيله[٥] وأزرح[٦] ودومة الجندل[٧] . وكلها كانت امارات نصرانية تابعة للروم .

وفى السنة العاشرة حج مع أصحابه حجة الوداع ، وتم نزول القرآن فى يوم الحج الأكبر ، حيث نزل عليه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الأسلام دينا » ، ولم يمض بعد ذلك إلا ثلاثة أشهر ، حتى التحق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، بعد أن ترك فينا كتاب الله الكريم ، وسنته القويمة .

---

(١) غزوة بدر فى السنه الثانية من الهجرة .
(٢) غزوة أحد فى السنة الثالثة من الهجرة .
(٣) غزوة الخندق فى السنة الخامسة من الهجرة .
(٤) غزوة خيبر فى السنة السابعة من الهجرة .
(٥) بلدة موضعها العقبة الآن .
(٦) بلدة قريبة من تبوك ، من أطراف الشام الجنوبية .
(٧) حصن وقرى شرق تبوك بيادية الشام .

وبويع أبو بكر بالخلافة فى سقيفة بنى ساعدة. ثم من بعده بويع بقية الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين. ومازال الخلفاء ينشرون الدعوة الإسلامية، ويوالون الفتوحات، حتى أصبح الاسلام أعز من جبهة الأسد. تخر له الجبابرة سجدا من هيبته.

وبعد ذلك دخل العنصر الأجنبى، وتحكم فى أمور المسلمين: فاعتمدوا على الفرس ثم جاء المعتصم (أحد خلفاء الدولة العباسية) فألقى مقاليد الحكم فى يد الأتراك [1] وهكذا أخذ الضعف ينخر فى جسم الدولة، حتى أصبحت مهيضة الجناح. وإنك لو نظرت إلى الأمم الاسلامية اليوم، لسالت الدموع دما على مانحن عليه من ضعف وهوان! . وما ذلك إلا مصداق لقوله عز وجل: «إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» فاللهم اهدنا سواء الصراط، ورد إلينا قوتنا، وهيىء لنا من أمرنا رشدا.

---

(١) تاريخ الطبرى جزء ثالث ورابع، سيرة ابن هشام.

ترفق الإسلام في تشريع الأحكام ، فلم يفاجىء الناس بانتزاع ما ألفوا من العادات دفعة واحدة ، لكيلا ينفروا منه ، بل تدرج في إزالة الرذائل عن الانسانية شيئاً فشيئاً ، حتى وصل بها إلى ذروة الكمال ، ومنتهى الفضائل .

ولم يكلف الناس فوق طاقتهم ، ومايخرج عن مقدورهم ، حتى لايصدفوا عنه ؛ بل جعل احكامه سهلة يسيرة .

وأراد أن تكون شريعته دستوراً عاماً للناس كافة من لدن محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة ، فوضع قواعد كلية تستطيع كل أمة أن تستنبط منها القوانين التي تحقق مصالحها ، وتنظم علاقاتها على أتم وجه وأكمله .

وجعل رائده خير الانسانية ، اينما وجد اتجه اليه ، لايصرفه عنه صارف . ولذلك لم تحمله كراهة الجاهلية على محو عادات أهلها ، وإبطال جميع أعمالهم ، بل أقرا لصالح منها ، وجعله حكما لازماً. ولتتجلى لك روح التشريع الإسلامى ، وليستبين أمامك نهجه في تشريع الأحكام — نوضح ماأجملناه ، ونبينه بالأمثلة فيما يلى :

اولا — التدرج في التشريع:

كان شرب الخمر من العادات المستحكمة في الجاهلية ، وكان لها على النفوس سلطان قاهر فلو أن الإسلام حرمها تحريماً باتا ، دفعة واحدة ، لتحملوا في تنفيذ حكمه آلاماً لاقبل لهم بها ، ولعصى أمره من لم يطمئن قلبه بالإيمان . لذلك ساسهم سياسة الحكيم الخبير . فمهد لتحريمها ببيان أن فيها إثماً كبيراً ، من غير أن يحكم فيها بشيء حاسم ، يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما ، فكشف الغطاء عن عيون كان حب الخمر يعميها عن إدراك مضارها وتهيأت النفوس لأن يخطو بها المشرع خطوة أخرى نحو تحريمها ، فحرم شربها عند

ارادة الصلاة (يأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) ثم تركهم مدة لمسوا خلالها أنهم سيقوا — من حيث لايشعرون — إلى ترك الخمر ، فقد كان تركها أثناء الصلاة تدريباً عملياً ، واستدراجا لطيفاً هيأهم لنبذها من غير أن يصادفوا عناء ، وأدركوا أنهم إن تركوها بتاتا أفادوا صحة ومالا وكرامة ،وتلهف العقلاء إلى أن يحرمها الله تحريماً قاطعاً . ورد أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يكثر الضراعة إلى الله ، ويقول : « اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً » . عندئذ نزل قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » فتقبلوا هذا الحكم فرحين .

ثانياً — عدم الحرج :

جعل الله شريعته سمحة سهلة : لايشق على مكلف تنفيذها ، ولا يعنت أحداً أداؤها . وأخذ السبيل على الذين يريدون أن يشقوا على أنفسهم ، ويغلوا فى دينهم ويحملوا أنفسهم فوق ماتطيق ، زعما منهم أن الغلو يقربهم إلى الله : فبين فى مواضع كثيرة من كتابه الكريم ، وبين الرسول فى كثير من أحاديثه الشريفة أن الله يسر عليهم دينهم ، ولايرضيه أن يعسروا على أنفسهم قال تعالى « ماجعل عليكم فى الدين من حرج » وقال : « يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر » وقال : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » وقال : « لايكلف الله نفساً إلا وسعها » وقال فى وصف رسوله الكريم : « ويضع عنهم إصرهم والاغلال التى كانت عليهم » وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه » وقال « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » وفى شمائله (عليه السلام) « أنه ماخير بين أمرين إلا إختار أيسرهما مالم يكن إثماً » ...إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التى تبين أن الشريعة كلها يسر ، ولا عسر فى شىء منها .

ومن أجل اليسر فى الدين شرعت الرخص كالفطر للمسافر ، وإباحة ماحرم عند الضرورة .

ثالثا — القواعد الكلية :

عنيت الشريعة الإسلامية بتقرير القواعد الكلية التى لاتختلف باختلاف العصور والبلاد ، ليستطيع المجتهدون أن يستنبطوا منها أحكاماً للجزئيات ، تناسب عصرهم وبلدهم . ومن أمثلة هذه القواعد قوله صلى الله عليه وسلم «لاضرر ولاضرار» وقوله : « المسلمون عند شروطهم » .

وفصلت أحكام الجزئيات فى الأمور التى لاتختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة مثل أحكام الميراث ، لأن أسبابه لايعتريها تغيير ولاتحويل ، أما الأحكام الجزئية التى يعتريها تغيير ، فقد نص عليها بعد أن قرنها بالمصلحة الداعية إليها ، لتكون هذه المصلحة مناط الحكم ، فاذا تحقق المجتهدون فى زمن آخر أنها زالت ، حكموا بزوال الحكم تبعاً لها ، ولذلك منع عمر بن الخطاب رضى الله عنه سهم المؤلفة قلوبهم مع النص على فرضه فى القرآن ، لأن الحكمة من فرضه (وهى تأليف قلوبهم) قد زالت بعزة الاسلام ، وكثرة أنصاره . وبذلك صارت أحكام الشريعة دستوراً مرنا : فيه الشفاء لعلل المجتمعات مهما جد فيها من أقضية وحوادث .

رابعا — السماحة فى التشريع :

شن الإسلام الحرب على الجاهلية ليجتثها من أصولها : فحقرها ، وعاب نظمها وعقائد أهلها ، ولكنه مع ذلك أقر الصالح من عاداتها وأحكامها : لأنه حاربها ليمحو الفساد والجهل والظلم ؛ أما الحق والصواب وكل مافيه خير الانسانية — فأنها طلبته ، فاينما وجدها تمسك بها . ومن أمثلة ذلك حكم النكاح فقد جاء فى الجزء السادس من نيل الأوطار ص ٣٠٠ عن عروة « أن عائشة أخبرته أن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة انحاء: منها نكاح الناس اليوم : يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته ، فيصدقها[1] ثم ينكحها . ونكاح آخر . كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها[2] : أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ، ولا

(١) أصدق الرجل المرأة (سمى لها صداقها) (٢) الطمث (الحيض)

يمسها حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع [١] منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب . وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد . فكان هذا النكاح يسمى نكاح الاستبضاع . ونكاح آخر : يجتمع الرهط دون العشرة ، فيدخلون على المرأة كلهم فيصيبونها ، فاذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها ، أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم : « قد عرفتم الذى كان من أمركم ، وقد ولدت ، وهو ابنك يافلان » فتسمى من أحبت باسمه ، فتلحق به ولدها ، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل . ونكاح رابع : يجتمع الناس الكثير ، فيدخلون على المرأة ، لا تمتنع عمن جاءها (وهن البغايا ينصبن على أبوابهن الرايات ، وتكون علما ، فمن أرادهن دخل عليهن) ، فإذا حملت إحداهن ووضعت جمعوا لها القافة ، ثم الحقوا ولدها بالذى يرونه ، فالتاط به (أى التصق واستلحق) ونسب إليه . لا يمتنع من ذلك . فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق ، هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم » . فقد أبطل الأنواع الثلاثة الأخيرة لأنها دعارة تقوض بنيان المجتمع ، وأقر نكاح الناس اليوم لأنه يصون الأعراض ويمنع الفساد ، ويحفظ الانساب . هذه أمثلة من الأصول التى بنى عليها التشريع الإسلامى ، والتى صار بها التشريع المناسب للفطرة ، والصالح للناس فى كل زمان ومكان ، عرفها الباحثون العقلاء من كل ملة ، وأشادوا بفضلها ؛ ولم يجحدها الاغبى أو عصبى . فما أجدر المسلمين اليوم أن يرجعوا إليها ليسعدوا بها كما سعد بها الأولون .

---

(١) من استبضع الشىء جعله بضاعة . والباضع من يحمل بضائع الحى ويجلبها ، فيقال مثلا : جاء باضع الحى .